هل سنشهد انهيار الحضارة المادية قريباً؟ عبد الرحمن الزبيدي

هل سنشهد انهيار الحضارة المادية قريباً؟

عبد الرحمن الزبيدي

(الأزمة تتخبط حضارتنا) هكذا وصف عالم الاجتماع الفيلسوف الفرنسي (أدغار موران) الأزمة الإنسانية الأخلاقية العالمية التي عصفت بالعالم ووضعته في تحدي أمام الضمير الإنساني الذي يحمله ثلّة من الاحرار في عالمنا اليوم، فأصبحت المبادئ والقيم والنواميس الأخلاقية والإنسانية والديمقراطية التي

يتفاخر بها الغرب ويجلد بها ظهور الخارجين عن إرادته والمتنمرين على نفوذه، أصبحت كلها على المحك وبان للعالم المخدوع والمظلل بالرأي العام المصطنع بزيف وتزوير حقيقة اجتراره لهذه المبادئ والتشدق بها وكأنها من متبنيات (الحضارة الغربية).

ويعود الفيلسوف الفرنسي صاحب كتاب (هل نسير إلى الهاوية؟) إلى التنبيه والتحذير من مخاطر تفاقم العنف والجهل على مصير البشرية داعياً إلى اتخاذ موقف وعدم نسيان القضايا العادلة وانه يتخذ موقفاً يتمثل في القلق الإنساني تجاه أولئك الذين يعيشون المعاناة في غزّة ويقول أيضاً في مكان آخر منتقداً الواقع الإنساني المعقد الذي يكتنفه انتشار الشعور بالكراهية إن الإنسانية لم تتعرض إلى هذا القدر من المخاطر فإذا انتشرت الحرب على نطاق واسع فإننا لا نعرف إلى أين نتجه، لأي تراجع وأي انحطاط؟

أن ما ذكره موران ليس إلا عينّة صغيرة من الكثير مما كتبته الأقلام وتعالت له الأصوات الغربية التي استشعرت خطورة المسار الذي اتخذته (الحضارة الغربية) في انحدارها المحتوم نحو الانهيار وشخصت -بما لا يقبل الشك أو التحليل- إزدواجية المعايير، والانحياز التام نحو المصالح مهما كانت بعيداً عن المبادئ والشعارات المزخرفة المرفوعة.

لقد كشفت أحداث غزة الأخيرة زيف الحضارة الكارتونية التي يتبناها الغرب وزيف الادعاءات التي ارتكزت عليها والخواء الأخلاقي وظهر للرأي العام الغربي قبل الشرقي إن ما يحكمها ليس المثّل والأخلاق والحقوق وغيرها من المفاهيم المعنوية التي تحفظ كرامة الإنسان وتصون حياته وتتعامل معه على انه القيمة العليا في هذه الحياة، وإنما الحاكم هو المصالح القذرة والهيمنة على الموارد والخيرات وبسط النفوذ وغير ذلك باستخدام كل الوسائل المتاحة من دون حدود حتى لو أدى ذلك لقتل ملايين من البشر.

إن بوادر انهيار الحضارة المادية الغربية أصبحت من الوضوح بمكان خاصة مع افتضاح تناقضاتها بين النظرية والتطبيق ومع التفكك السريع للمنظومة القيميّة والأخلاقية في مجتمعاتهم وكأنه يسير وفقاً لمتسلسلة هندسية غير معلومة النهاية وقد صدرت بهذا الصدد عدة مؤلفات، منها كتاب (موت الغرب) لـ(بات بوكانان) ويذكر المؤلف عدة أسباب لذلك الموت البطيء الذي أخذ بالتسارع منها الهجرات الأجنبية وعزوف الشباب والشابات عن الزواج وانتشار البطالة ومنها أيضاً تراجع الإيمان المسيحي وتصاعد العلمانية والانتصار لها إلى أن يقول: (قرر الإنسان الغربي أنه يستطيع عصيان ا دون عواقب وان يصبح آلهة) لاحظ كيف انه يشير إلى تراجع الإيمان ومخالفة النواميس الإلهية و اعتبره سبباً

لانهيار صرح الحضارة.

وإذا أردنا أن ننظر إلى هذه الحقائق بدقة أكثر ونربطها بمرتكزاتنا الفكرية الأخلاقية وفقاً لمنظومة مدرسة اهل البيت (عليهم السلام) (ومن زاوية نظرنا) نجد المرجعية الدينية في النجف الأشرف قد صرحت بوضوح غير مرّة وعلى لسان جملة من مراجعها وفقهاءها ونأخذ مثالاً على ذلك ما ذكره سماحة الشيخ اليعقوبي (دام ظله) أثناء مشاركته مع جمع كبير من أساتذة وفضلاء الحوزة العلمية في النجف الأشرف في الوقفة التضامنية مع أهالي غزة المنكوبة حيث وصف سماحتُهُ دعم الدول المستكبرة للكيان الصهيوني وتسابق رؤساءه لزيارته والتعاطف معهم بانها فضيحة عظمى وهزيمة كبرى للحضارة المادية التي يدعيها الغرب، وكشفت زيف ادعاءاته في حقوق الإنسان وحقوق المرأة وحماية الطفل ومكافحة العنف الأسري وغيرها من العناوين البرّاقة التي حاولت الحكومات الغربية أن تخدع بها الشعوب ولكن سرعان ما افتضحوا وانقلب الرأي العام ضدهم بعد أن شاهد المجازر الدموية والكوارث الإنسانية التي ارتكبها الكيان الصهيوني ضد النساء والأطفال، وأي هزيمة وخزي لحقهم بعد أن تعرّت سياساتهم أمام شعوبهم، وانكشفوا أمامهم، وبعد ان شهدت عواصم الاتحاد الأوروبي مظاهرات تندد بجرائم الصهاينة ومن يدعمهم ويحميهم ويقف خلفهم ويطبّع معهم.

وليست هذه المرة الأولى التي يصرّح فيها سماحتُهُ بظهور ملامح انهيار الحضارة المادية، بل نوّه إلى ذلك في مناسبات عديدة كان آخرها ما ذكره في درسه في تفسير القرآن الكريم في ضوء تفسيره للآية الكريمة من سورة الحشر {يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ} [الحشر: 2] ([1])، وبيّن فيها الركائز الأساسية لنظرية أسباب انهيار الحضارات والأمم مهما بلغ شأوها وارتفع شانها واستشهد فيها بشاهدين من الماضي والحاضر وهما هزيمة المسلمين في الاندلس بعد أن حكموها 800 عام وانهيار الاتحاد السوفييتي

السابق دون قتال.

وسأختم مقالي بالاقتباس التالي من درس التفسير الذي يوضح فيه بعض المصاديق المعاصرة لكل ما أشير له آنفاً في هذا المقال:

(ان الحضارة الغربية سائرة اليوم بهذا الاتجاه (الخراب والانهيار) خصوصاً بعد اتخاذ عدد من

حكوماتهم قراراً بإباحة زواج المثليين وتغيير الجنس، وهو عامل تخريب للأسرة التي هي مقوم اساسي للأمة، كما أن التخلّي عن المبادئ الإنسانية السامية، والتجرد من المعنويات، ومن الإيمان باﷲ تعالى، واليوم الآخر، والخواء الفكري والأيديولوجي الذي يعيشونه وإشاعة ثقافة اللهو والعبث واللهث وراء الشهوات، وهوس التفاهات، يجعلهم مجتمعات كسولة مخدّرة غير منتجة، لذا تجدهم يستعينون بالمهاجرين من البلاد الأخرى لتسيير حياتهم، وهذه كلها أمور تنسف أساس الحضارة ومقومات الأمم، فعلينا أن نستيقظ ونحذّر من تسرّب هذه العناصر المدمّرة الى مجتمعاتنا الإسلامية، بل علينا أن ننقل إلى تلك الأمم ما عندنا لننقذهم مما هم فيه من الضياع).